

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### الفصل الأول

## عصر ابن رشيق

١ - شخصية المغرب العلمية والأدبية

١ - لما كان ابن رشيق القيرواني مغربي النشأة والمرتب - كما سندكره بعد -  
لزم أن نعرض في إيجاز للمغرب ، ونبين ما كان عليه أهله من حيث الدراسات  
الأدبية والنقدية وهي التي برز فيها صاحبنا ، ونقارنهم بالمشاركة.  
ونعني بالمغرب شمال إفريقيا والأندلس - وكلاهما غرب في الاصطلاح  
يومذاك . وموجز الرأي في أمر المشرق والمغرب « إنه لم تضع حدود الإقليم  
حواجز وفواصل في سبيل العلماء والأدباء والكتاب والشعراء ، فالقالي ( ٢٨٨ هـ -  
٣٥٦ هـ ) الذي نشأ في أرمينية وتأدب ببغداد علم وأنتج في أسبانيا « « حياة المتنبي  
كان مجالها بين العراق وسورية ومصر وفارس . وهذا يبين إلى أي مدى تشابهت  
إذ ذاك في جميع البلدان نظم الحياة الأدبية وشروطها » (٢)

فإذا نظرنا إلى المغرب في ضوء هذه الحقيقة رأينا له من وضعه الجغرافي ،  
بين العرب المستقرين في موطنهم الأصلي حيث المشرق ، وبين العرب النازحين  
إلى موطنهم الجديد حيث الأندلس ، مكاناً آتحر ، ذلك أنه صار لهذا الموضع  
الطبعي محط جميع العلماء والأدباء .

فالراحلون من المشرق إلى الأندلس ، والآيرون من الأندلس إلى المشرق  
يمرون بالمغرب . بل كثير من هؤلاء وأولئك حطوا رحالهم في القيروان ، مدينته  
الكبرى قبل ابن رشيق وإلى أيامه ، مدينة العلم والأدب وبغداد المغرب .

فهذا أبو الفضل عبد الواحد الدارمي البغدادي يقدم رسولا من قبل القائم بأمر الله العباسي ، إلى المعز بن باديس أمير المغرب وحاكمه ، في مهمة تتعلق بشئون الحكم والسياسة ، فتحلوه القيروان ويقيم بها ، وينتظم في سلك رجال المعز الأدباء ، ثم لا يعود إلى بغداده .

وهؤلاء هم شعراء الأندلس ينزحون من أندلسهم ليستقروا في رحاب ذلك الأمير الذي يبذل في تكريم الشعراء ما لا يكاد العقل يصدقه فيكون من وراء ذلك كله أدب جم وعلم غزير .

## ٢

ومع إيماني بتأثير البيئة في إنتاج الأديب من شعر ونثر ، فإنني أرى أن ذلك التأثير لا يتضح في العلوم التي يستوى أمامها الناس ، والتي لا تختلف كثيراً باختلاف البيئات والأزمان ، وإنما يتضح في الفنون إذ هذه تنطبع فيها فوق شخصية الفنى صورة المكان والزمان بخواصهما .

وابن رشيق وإن يكن شاعراً فهو عالم حين يخوض في حديث النقد والأدب ، وسنرى بعد إلى أى حد نضجت في إنتاجه بيئته وعصره .

ثم علماء المغرب وأدباؤه كانوا ينظرون إلى المشرق ورجاله على أنهم الأب الروحي لهم ، وتقضى سنن الطبيعة وقوانينها المقررة بأن « الأدنى يأخذ عن الأعلى » <sup>(١)</sup> فلا عجب أن يتمنى المغريون لو كان في المشرق مقرهم ومطلعهم . وهذا أبو محمد علي بن سعيد بن حزم ( ٥٤٥٦هـ ) يبكي حظه أن كان غريباً أندلسياً فيقول :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة      ولكن عيبي أن مطلعى الغرب  
ولو أنني من جانب الشرق طالع      لجد على ما ضاع من ذكرى الذهب

(١) تيارات أدبية ص ١٢٥ - ١٢٧ .

ولى نحو أكتاف العراق صباية ولاغرو أن يستوحش الكلف الصب<sup>(١)</sup> وما يصدر هذا الشعر إلا عن يكون الشرق في نظره ، وفي واقع الأمر ، أثبت شأناً وأرسخ قدماً في العلوم والفنون والآداب .

## ٣

« وكان لا يظهر كتاب علم أو ديوان شعر لنا بعة من نوايغ العرب في الشرق إلا تهاداه أكابر الأندلس وعلماءه ، واستنسخوه وتداولوه »<sup>(٢)</sup> يقول الدكتور أحمد ضيف - رحمه الله . « وجدنا ظاهرة التقليد للشرق واضحة جليلة ، إذ تصاغ الكتب الأدبية على يد الأندلسيين على شكل الكتب الأدبية عند المشاركة ، ويصاغ العقد الفريد على شكل عيون الأخبار ؛ ويراه الصاحب بن عباد فيقول : هذه بضاعتنا ردت إلينا »<sup>(٣)</sup> ويقول ابن خلدون « وبالحملة فالمشاركة على هذا الفن - يريد البيان - أقدر من المغاربة »<sup>(٤)</sup>

ويقول ابن بسام : « إن أهل هذا الأفق - يريد الأندلس - أبوا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعتق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب بلخثوا على هذ صنما ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً . »<sup>(٥)</sup>

ويزيد على ذلك ما يكشف عن رغبة أهل المغرب في مجارة أهل المشرق أو الزيادة عليهم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا فيقول : « فغاظني منهم ذلك ،

(١) المعجب ص ٤٨ .

(٢) منهل الورد ص ٣ ص ١٨٣ .

(٣) مقدمة لدراسة بلاغة العرب ص ٣٠١ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٦٤٦ .

(٥) الذخيرة - القسم الأول مجلد ١ ص ٢ .

وأنت مما هنالك ، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة ، وتصبح بحاره  
ثماداً مضمحلة . وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان ، واختص أهل  
المشرق بالإحسان (١)

والأمر قريب من هذا في الحياة السياسية فالناصر يلقب نفسه بالخليفة ،  
وأمرأ الطوائف يلقبون أنفسهم بالرشيد والمأمون والمتوكل والناصر والمنصور والمعتمد  
والمعتضد حتى يقول ابن شرف :

مما يزهدني في أرض أنداس أسماء معتضد فيها ومعتمد  
ألقاب مملكة في غير موضعها كاهل يحكي انتفاخاً صولة الأسد (٢)  
وهكذا كان احتفاء المغاربة بالمشاركة وإكبارهم لهم كإكبار بعض المشاركة  
اليوم لأهل الغرب ، حتى لكان هم أحدهم أن يقال عنه إنه يشبه أحد رجال  
المشرق . يقول الثعالبي في حديثه عن ابن دراج « كان بصقع الأندلس كالمتنبى  
بصقع الشام » (٣)

وقد كانت الكتب التي تُولف في الشرق تنقل إلى الغرب بمجرد أن يبيعها  
أصحابها . يقول صاحب معجم الأدباء : « ولعل من الغريب أن يعرف القارئ  
أن كتابي البيان والتبيين ، والتربيع والتدوير ، نقلًا في حياة الجاحظ إلى  
الأندلس » (٤)

ولا مانع عندي من القول بأنه كانت هناك بعثات تفد من المغرب على  
المشرق ، وليس الأمر أمر فرد ، ولكنه أمر جماعات ، جاءت إلى المشرق  
تنهل من موارده ، وتأخذ عن علمائه ، ويكفي لصحة ذلك وتأكيده أن يعقد  
ياقوت الباب الخامس من كتابه معجم الأدباء « في التعريف ببعض من رحل

(١) المصدر السابق - الصفحة نفسها .

(٢) أبو الفدا تحت حوادث سنة ٣٥٠ هـ .

(٣) اليتيمة ج ٢ ص ٩٠ .

(٤) معجم الأدباء ج ٦ ص ٧٦ .

إلى بلاد المشرق الزاكية العرار والبشام ، ومدح جماعة من أولئك الأعلام ،  
لشامة وجنة الأرض دمشق الشام — ويقول — اعلم أن حصر أهل الارتحال لا  
يمكن بوجه ولا بحال ، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب ، ولو  
أطلقنا عنان الأقلام لطال الكتاب وكثر الكلام . . . »<sup>(١)</sup>

ومع أن ياقوتاً لا يطلق للكلام العنان ، فإن حديثه عن هؤلاء المبعوثين  
يستغرق الجزء السادس والجزء السابع من الكتاب — ولا غرابة في أن يتجه الفرع  
إلى أصله ، ويعاود الطير الحنين إلى دوحه .

## ٤

وبعد فن المفروض ، إلى أن يتم التحقيق ، أن ابن رشيق لم يختلف عن  
أهل عصره ، ولم يخرج على قوانين الحياة ، وأن يكون تأثر بالمشاركة في تناوله  
للأدب ناقداً ومؤرخاً وبلاغياً ؛ ويكون هو نفسه بذلك دليلاً على أن المعارف  
الإنسانية تتشابه إلى حد كبير برغم اختلاف البيئات ، ودليلاً كذلك على أن  
اللغة حين تسود في جهات كثيرة لا تختلف في قواعدها وقوانينها وإن اختلفت  
في لهجاتها وموضوعاتها ، لا سيما إذا كانت تعتمد من ذلك الاختلاف بكتاب  
مقدس تدور حوله ، ومعدل حصين تأوى إليه . واللغة العربية من هذا القبيل ،  
فهى مرتبطة بالقرآن الكريم ، ذلك الكتاب الذى لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا إنه  
كان الملهم لكثير من البحوث اللغوية على اختلاف مناحيها ، وكان هم العلماء  
الحافظة على سلامته ببيان طرق استعمال لغته ورسم قواعدها ، وحد حدودها ،  
وتوضيح « المقتضيات التى يتطلبها مبدأ ( تنقية اللغة ) »<sup>(٢)</sup> « وقل أن تجد كتاباً  
في علم من هذه العلوم — علوم اللغة — لم يتشفع مؤلفه إلى القراء فيه بمقدمة

(١) معجم الأدباء ج ٦ ص ٥ .

(٢) العربية — يوهان فك ص ٩٠ .

يوضح فيها ما لذلك العلم من العلاقة بالدين «<sup>(١)</sup> كأنما وضعت المعارف اللغوية جميعها لخدمة الدين .

## ٥

والمتتبع لابن رشيقي في آثاره يرى أنه كثير النقل عن المشاركة، بل ليست مصادره في جملتها إلا ما قرأه من مؤلفاتهم ، ولا يكون هذا إلا عن إيمان منه بفضلهم ، وعرفان لمزيتهم ، بل إنه ليصرح بذلك حين يقول : « إلا أن للمشرق فضيلة ومزية »<sup>(٢)</sup> وذلك عند حديثه عن موارده لأبي الحسن التهامي وتصريحه بأنه سبقه .

## ٦

وخلاصة فكرتنا أن الأدب العربي حين احتل الأقاليم الإسلامية كان يؤثر في ثقافتها أكثر مما يتأثر هو بها . وكان يفرض نفسه على هذه الأقاليم بسبب مقوماته التي اشتقها من الدين ومن السياسة ومن الفنية ، فبقيت صورته الفصحى غالبية ، موحدة على العموم ، وهذا التوحيد حفظ عليه وحدة القالب وتقارب الفكرة وتوافق المنهج إلى حد كبير .

أما الإقليمية المحلية فيمكن أن نراها في الأدب الشعبي ، في لغته العامية ، وفي خصائصه المتباينة . ولذلك مواضعه من البسط والتوضيح في غير هذا البحث

ب - الحالة السياسية :

نشأ ابن رشيقي في المغرب الأدنى ثم انتقل آخر حياته إلى صقلية تلك الجزيرة الواقعة في البحر الأبيض المتوسط على ما سنذكره مفصلاً بعد ، ولما

(١) مهمل الورد ج ٢ ص ١١٧ .

(٢) قراصة الذهب ص ٥٠ .

كان للبيئة على ما قدمت الأثر الكبير في شخصية الفرد لا سيما إذا كان شاعراً أو ناقداً فمن الحتم التعرض للحالة السياسية ، ومن مدن هذا الجزء في القديم تونس<sup>(١)</sup> . والقيروان ، والمحمدية وهي المسيلة ، وصبرة ، إلى غير ذلك من المدن التي نجد أسماءها في معاجم البلدان القديمة ولا يزال بعضها قائماً إلى اليوم . وقد بقيت تونس بعد الفتح الإسلامي تابعة في إدارتها لولاية مصر إلى أن كان منتصف الدولة الأموية تقريباً فانفصلت عنها ، فلما كان عصر الرشيد تولى عليها إبراهيم بن الأغلب وأورث هذا بنييه ولايتها من بعده فظلوا يتعاقبون عليها حتى انتزعها منهم الفواطم العبيديون سنة ٢٩٦ هـ .

ولما استولى الفاطميون على مصر ( ٣٥٨ هـ ) وبنوا القاهرة قاعدة للملكهم صارت تونس ولاية يتعاورها ولا تهم الذين يحكمون لحسابهم ، فولّى المعز لدين الله الفاطمي عليها قبل مسيره إلى مصر بملكين بن زيري سنة ٣٦١ هـ . فاتخذ هذا مدينة القيروان قاعدة لولايته .

وفي سنة ٣٧٣ هـ . مات بلكين الذي كان يعترف للفاطميين بالتبعية<sup>(٢)</sup> وخلفه في الحكم ابنه المنصور الذي تولى سنة ٣٨٦ هـ . والذي قام في مقامه ولده باديس<sup>(٣)</sup> .

وكان لباديس هذا حق تعيين العمال والولاة<sup>(٤)</sup> في البلاد التي تخضع لحكمه ، فولى عمه حماد بن بلكين ناحية أشير إحدى مدائن المغرب الأوسط يومئذ . فأنشأ بها قلعة حصينة . وأقام لنفسه ملكاً داخل ملك ابن أخيه يتمتع فيه بكثير من مظاهر الاستقلال برغم اعترافه له بالتبعية ، « وحماد هذا هو الذي أنشأ القلعة المعروفة « بقلعة حماد » بالقرب من بجاية وسكنها هو وخلفاؤه من بعده »<sup>(٥)</sup>

( ١ ) كانت كلمة تونس تطلق ويراد بها شمال إفريقية - حقق ذلك سعادة حسن حني باشا وزير معارف تونس المعاصر وعضو المجمع اللغوي بمصر .

( ٢ ) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٧٥ .

( ٣ ) المصدر السابق ج ٣ ص ٦ .

( ٤ ) المال جمع عامل وهو الحاكم والوالي .

( ٥ ) تعليق بخط حسن باشا حنى عبد الوهاب كاتب مقدمة رسالة ابن رشيق ونقد الشعر للمؤلف

ومنذ تلك اللحظة أصبح في المغرب فريقان : بنو حماد في قلعتهم الحصينة بأشير ، وبنو باديس في القيروان والمهدية .

وفي سنة ٤٠٦ هـ توفي باديس وخلفه ابنه المعز<sup>(١)</sup> الذي أعلن انفصاله عن العبيديين واستقلاله بالمغرب ، إذ خلع طاعتهم ، وخطب للخليفة العباسي في بغداد ، القائم بأمر الله ، وكان ذلك في سنة ٤٣٩ هـ<sup>(٢)</sup> . وقال لرسول المستنصر الفاطمي العبيدي حين وفد عليه : « قل لصاحبك إن لنا ملك إفريقية قبل أن يكون للعبيديين ذكر »<sup>(٣)</sup> . وكان ذلك بداية قيام فتن بين المعز وبين أبناء عمومته بنو حماد ، إذ خلعوا هم كذلك طاعته ، وأشعل نار الفتن العبيديون الناقمون من القاهرة بما أوحوا القبائل بنو هلال أن يغيروا على المعز تارة وعلى بنى عمومته تارة أخرى .

وهكذا ضعف الأخوان ، وأظهر المغيرون عليهم من الجرأة ما عجز المعز معه عن دفع غاراتهم على القيروان فأشار على أصحابه أن يرتحلوا إلى المهدية وكان عليها ولده تميم من سنة ٤٤٥ هـ . أما هو فخرج إليها سنة ٤٤٩ هـ<sup>(٤)</sup> واحتل الثوار القيروان ، وعاثوا فيها ثخريباً وهدماً وإحراقاً على جارى عادات القبائل الممجيية .

ومن ثم لحقت القيروان نكبة عدت من أكبر ما نكبت به مدينة في التاريخ الإسلامي « فاندكت بذلك معالم مدينة من أزهى وأزهر مدنيات هذه البلاد ، وفي ذلك يقول شاعر بلاط المعز ، الحسن بن رشيق :

حسنتُ فلما إذ تكامل حسنُها      وسما إليها كل طرف دان  
وتجمعت فيها الفضائل كلها      وغدت محل الأمن والإيمان  
نظرتُ لها الأيام نظرة كاشح      ترنو بنظرة كاشح معيان

(١) الكامل لابن الأثير ٩ ص ٩٤ تحت حوادث سنة ٤٠٦ .

(٢) صبح الأعشى ٥ ص ١٢٤ .

(٣) المعجب ص ٢٠٤ .

(٤) الحلل السندسية ص ٢٣٩ .



حتى إذا الأفدار حمّ وقوعها ودنا القضاء لمدة وأوان  
أهدت لها فتناً كليلٍ مظلمٍ وأرادها كالناطح العيدان  
لو أن ثهلانا أصيب بعشرها لتدكدكت منها ذرا ثهلان<sup>(١)</sup>  
حزنت لها كور العراق بأسرها وقرى الشام ومصر والحرسان<sup>(٢)</sup>

وفي المهديّة قضى المعز بقية حياته إلى أن مات سنة ٤٥٤ هـ . وحكم بعده  
ابنه تميم . وعُمر في الحكم طويلاً إذ مات سنة ٥٠١ هـ . وكان من خير الرجال  
حكماً وعقلاً وأدباً .

ح - صقلية :

أما عن صقلية فقد فتحها المسلمون أيام حكم الأغالبة بأفريقية سنة ٢١٢ هـ .  
وظلت تحت حكم المسلمين حتى نزح إليها من الأفريقيين جماعة في إثر  
جماعة سنة ٣٩٥ هـ . وكانت يومئذ تحت حكم جعفر بن يوسف بن عبد الله  
الكلبي ، فرحب بالنازحين أهلها ، « وأفسحوا لهم في مكان العيش ، ويسروا  
لهم أسباب الارتزاق . »<sup>(٣)</sup>

وفي سنة ٤١٧ هـ . قصد إليها ابن المعز بن باديس ، عبد الله وأيوب  
فانحين . فقتلا حاكمها ودبرا الأمر فيها . بحكمة ، وفكراً في غزو الزمان  
وأعداً لذلك العدة ، وأمدّهم أبوهم بأسطول ضخم ، وبينما النفوس متطلعة إلى  
نصر مبين ، هبت عاصفة على الأسطول فأغرقت ، وأغرقت معه الآمال ،  
وكانت سبباً في ضياع صقلية بعد ، وفي طمع الهلاليين في ملك المعز بشمال  
إفريقية . كما اجتراً الزمان على الجزيرة ، وحاول أيوب ابن المعز أن يستردها  
منهم ، ولكن جماعة من المسلمين انضموا إلى الزمان فأفسدوا على أيوب تدبيره .  
وقرر وجوه القوم الانسحاب من الجزيرة إلى المهديّة فركبوا إليها الأسطول حاملين

(١) ثهلان : اسم جبل .

(٢) المسلمون في جزيرة صقلية ص ١٨٢ .

(٣) المسلمون في جزيرة صقلية ص ١٨٢ .

معهم جميع من رأى الانسحاب من الجزيرة من خاصة القوم وأعيانهم وعامتهم ، وكان ذلك سنة ٤٦١ هـ . وبذلك خلا جو الجزيرة للزمان فأطلقوا فيها أيديهم .

\* \* \*

ذلك مجمل ما كانت عليه حالة العصر السياسية في شمال أفريقية وفي صقلية أيام ابن رشيق ، وسنرى كيف كان الاطمئنان بالحياة في القيروان ثم الاضطراب الذى أصابها وأصاب المنطقة كلها ، — كان — ذا تأثير فيه — وهكذا تعمل السياسة في حياة العلماء والأدباء ، يتأثرون بها ، ولا يعتصمون منها في الهدوء والاضطراب . . . .

\* \* \*

#### د — الحالة الاجتماعية :

يمكن أن نقول إن حياة الناس في هذه الفترة كانت تتلون بلون الحياة السياسية ، فإذا هدأت الفتن ، استقرت أمورهم وانصرفوا إلى معاشهم ، وأقبلوا على الإنشاء والتعمير . يقول صاحب « المسلمون في جزيرة صقلية » عن المعز وعصره : « وكانت له مدنية من أجل وأروع ما رآته البلاد الإفريقية »<sup>(١)</sup> وتجلى هذه المدنية في أن كان للدولة نظام يضارع أحدث النظم في عصرنا الحاضر ، فقد كانت هناك دواوين يقوم بالأمر فيها رجالات من أصحاب الثقافات الواسعة « وكانت الدواوين ثلاثة ؛ ديوان الجيش ، وديوان الجباية ، وديوان الرسائل »<sup>(٢)</sup> « ويتلو الجباية ديوان المراسلات أو تحرير المكاتبات والصكوك الصادرة عن الأمير مخاطبة عمال الجهات والولاة والقواد وغيرهم . وكان هذا الديوان في دولة المعز منتصباً بمدينة صبرة — على نصف ميل من القيروان — بمقربة من منزل الملك ، وهو يحتوى على أكثر من مائة كاتب ببلغ كابن رشيق وابن

( ١ ) المسلمون في جزيرة صقلية ص ١٧٨ .

( ٢ ) بساط العقيق في تاريخ القيروان وشاعرها ابن رشيق ص ٢٨ .

شرف ويرأسهم أبو الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني . مربى المعز بن باديس  
وكاتب سره .<sup>(١)</sup>

أما حين اضطربت الأمور ، واندلعت نار الفتن فإن القوم اضطربوا في  
معايشهم ، واختلت حياتهم ، ونطقت بهذا ألسنتهم . وهذا تميم بن المعز الخليفة  
يشكو ذلك الاضطراب وتلك الفتن وكيف تجعل العالى سافلا والسافل عالياً  
فيقول :

يا دهر ما أقساك من متلون في حالتك وما أفلك منصفاً  
أتروح للنكس الجهول ممهراً وعلى اللبيب الحرسيفاً مرهفاً  
وإذا صفوت كدرت ، شيمة باخل وإذا وفيت قطعت أسباب الوفا<sup>(٢)</sup>  
ويقول يستهض هم قومه ويستنفهم للذود عن الحياض ورد المغير :  
متى كانت دماؤكم تطلُّ أما فيكم بثأر مستقلُّ  
ونتم عن طلاب المجد حتى كأن العزم فيكم مضمحلُّ  
فهذا الشعر ، مهما تكن مرتبته الفنية ، يصور لنا حياة القلق التي اعتورت  
البلاد في هذه الفترة من حياة الدولة الصنهاجية أخريات أيام ابن رشيق .  
هـ - الحالة العلمية والأدبية :

وهذه نقول فيها إن ضيق رقعة البلاد ، واعتزاز المعز بالحكم ، وزهو  
بالاستقلال عن الفاطميين ، ورغبتهم في أن يظهر أمامهم - وقد استقل عنهم  
وأصبحوا له أعداء - بمظهر الند ، إن لم يكن بمظهر المتفوق السباق ، ثم  
ما وهبه من حب للعلم وما جبل عليه من تعلق بالأدب وأريحية للأدباء ،  
نقول ، إن ذلك كله هياً فرصة طيبة لحياة علمية وأدبية نامية حية في هذه الفترة  
بتلك البلاد .

(١) بساط العقيق في تاريخ القيروان وشاعرها ابن رشيق ص ٣٣ .

(٢) المسلمون في جزيرة صقلية ص ٨٤ .

(٣) ظل دمه : ذهب هدرأ .

قال المراكشي « وكانت القيروان هذه في قديم الزمان . منذ الفتح إلى أن خربها الأعراب ، دار العلم بالمغرب ، إليها ينسب أكابر علمائه وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم ، وقد ألف الناس في أخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ، ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء والمتبتلين ، كتباً مشهورة ككتاب أبي محمد بن عفيف وكتاب ابن زيادة الله الطيبي »<sup>(١)</sup>

ويكفي في التدليل على نهضة العلوم والآداب في هذه المدينة أن يجد ابن رشيقي - المترجم له - من شعرائها - دون غيرهم من رجالات اللغة والفقه والتفسير والحديث . ومن أهل الزهد والتصوف إلى آخر من هنالك من رجالات العلم من يؤلفون مادة لكتاب خاص بهم هو « أنموذج الزمان في شعراء القيروان » وبرغم « أن المكتبات العمومية قد خلت منه فيما يعلم الميمني »<sup>(٢)</sup> فلنا نجد بين دفات الكتب - لا سيما كتب التراجم . نقولا منه كثيرة .

هذا عن الحركة العلمية في القيروان ، ولذا لا نعجب أن يرثيها محمد بن أبي سعيد المعروف بابن شرف فيقول :

ترى سيئات القيروان تعاضمت فجلت عن الغفران والله غافر  
تراها أصيبت بالكبائر وحدها ألم تك قديماً في البلاد الكبائر ؟

\* \* \*

أما عن المهديّة « وبينها وبين القيروان مسيرة يومين »<sup>(٣)</sup> فإن لنا أن نسمع رأى أحد المؤرخين فيها وهو يقول : « وقد ازدان ملك صنهاجة بالمهديّة كما ازدان بالقيروان . فكان فيها بلاط فاخر ، التفت حوله ثلة صالحة من رجال العلم وأعلام الأدب وكبار الفلاسفة والشعراء . وكانت أيام المهديّة على صغر المملكة ، وتعاقب الحروب بينها وبين

(١) المعجب ص ٣٥٦ .

(٢) ابن رشيقي للميمني ص ٣١ .

(٣) مسالك الممالك ص ٣٦ .

(٤) بساط العقيق ص ٣٩ .

الهلالين أياماً مشهودة في تاريخ الفن والعلم والأدب . . . وقصدها من كل ناحية أمثال فيلسوف الأندلس . . . وكان أمير المهديّة ، تميم ، من خير الرجال عقلاً وأدباً وحسن إدارة ، ومعرفة بأصول الأدب والشعر»<sup>(١)</sup>

وانتجع حضرته جماعة من شعراء المغرب والأندلس ، منهم أبو إسحق ابن أبي خفاجة في صباه ، وعبد الله بن عبد الجبار الطرطوسي ، وأبو الحسن علي بن عبد العزيز الحلبي المعروف بالفتكيك ، وغيرهم . . . وخدمه بالشعر من أهل إفريقية جماعة أيضاً . . . ومدحه قبل هؤلاء شعراء المعز أبيه»<sup>(٢)</sup>

و « بالجملة فإن العلم ازدهر بإفريقية في القرنين الرابع والخامس ازدهاراً لم يسبق مثله بسبب انتشار التعليم ، ومساعدة ولادة الأمر والوجهاء الذين كانوا يفرضونه على أولادهم ، ونسائهم ، وجواريتهم ، وخدمهم عملاً بأوامر الشريعة السمحاء»<sup>(٣)</sup>

\*\*\*

ولا يفوتني هنا أن أذكر أن قد كان للمكتبات والكتب في ذلك العهد شأن كبير . يدل على ذلك أن المعز « أهدى مرة إلى أبي بكر عتيق السوسى تسعمائة مجلد من نفائس الكتب . أرسلها إليه على رؤوس الحمالين عقب مجلس علمي ، استحسّن فيه الأمير آراء ذلك الأديب »<sup>(٤)</sup> فإذا صح هذا الخبر أو قارب الصحة فما بالنّا بمكتبة الأمير إذن ؟ قالوا وأهدت جدته ، وهي حاضنة باديس والده كتباً جميلة إلى المكتبة العامة التي كانت في البيت المجاور للمحراب من الجامع الأعظم . ومن بين هديتها مصحف بخطها على رق مزوق بالذهب .»<sup>(٥)</sup>

\*\*\*

أما عن النشاط العلمي والأدبي في صقلية فيمكن أن تعلم أن قد نبغ فيها

(١) المسلمون في جزيرة صقلية ص ١٨٤ .

(٢) المجموعة المغربية ص ٣٠٧ .

(٣) بساط العقيق ص ٣٨ .

(٤) بساط العقيق ص ٣٩ .

مؤرخون ومحدثون ولغويون ونحويون وفقهاء لهم في الثقافة مكانتهم ، منهم ابن  
ظفر الصقلي المؤرخ الأديب المتوفى سنة ٥٦٥ هـ . صاحب كتاب « أنباء  
نجباء الأبناء » وابن القطاع الأديب اللغوي المتوفى سنة ٥١٥ هـ. وابن حمديس  
الصقلي الشاعر الذي رحل منها في ظروف سياسية أشرنا إليها وعاش في كنف  
الأمير تميم بن المعز ، إلى غير هؤلاء ممن لا نطيل بذكرهم .  
في هذه البيئة العلمية الأدبية الصاخبة ، وبين جدران هذه المكتبات  
العامرة ، وفي بلاط المعز ، وتحت ظل ابن أبي الرجال نشأ ابن رشيق القيرواني  
وعاش حتى مات ، وهذا أوان أن نفصل القول في حياته .